شعر الإخوانيات في معتقل بوسوي

د . بلقاسم دكروك
جامعة أم البواقي

إن الاخوانيات فن من فنون الأدب العربي القديم، إذ إن الإنسان بأخيه، ولذا كان الشعراء يهتمون بها سواء أكانت تعزية، أم عتابا، أم شوقا، أم مراسلات عادية، وكل ذلك لربط أواصر القربى ووشائجها، والمحافظة على أصول الإخاء، وتمتين دعائم العلائق الأخوية . والسجناء أحوج الناس إلى هذا التكاتف وتلك الأخوة، لأنهم سجنوا من أجل قضية واحدة، ومن طرف استعمار واحد لا يفرق بين هذا وذاك، ولذا كان هؤلاء السجناء في مستوى الموقف، فكونوا صالونا أدبيا أسموه "الندوة الأدبية" ليكون ملتقى تلاقح الأفكار، وتنافح الأرواح وتبادل المشاعر، وإيصال صوتهم إلى العالم الخارجي .

Les écritures dites "ikhwaniats" "fraternelles, appartiennent à un genre reconnu comme ainsi dans la littérature arabe antique. Genre utilisé jadis par bon nombre de poètes dans leur correspondance personnelles ou sociales.
En temps présent, les "ikhwaniats" est le genre privilégié dans les correspondances entre les prisonniers, ce qui à fait de lui le porte parole de ces âmes privées de liberté et de justice .

لا عجب أن كوّن هؤلاء هذا الصالون الأدبي فهم أبناء جمعية واحدة ـ عموما ـ جمعية العلماء المسلمين، ويعملون في سلك واحد وهو التعليم، كما أنهم أبناء الريف المحبون للصداقة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والمخلصون إذا أحبوا، ومن هؤلاء الشعراء الذين كونوا هذه الندوة: أحمد سحنون، أحمد عروة، أحمد شقار الثعالبي، خالد بن يطو، عمر شكيري، محمد الشبوكي، مصباح الحويذق وغيرهم .. وسموا هذه الإخوانيات بالهدايا، ورقموها حسب الترتيب الزمني لها، وهي في الحقيقة أسلوب من أساليب التكتل ضد المستعمر داخل السجون والمعتقلات، وأسلوب من أساليب الحوار في مسرح الحياة اليومية وراء القضبان وخلف الجدران . وهي عبارة عن أشعار تتكلم عن أواصر الود والإخاء، فيها الحنين إلى الاخوان والعتاب على بادرة صديق، والشكوى من فراق آخر، "إنها حديث القلب للقلب، وهمسات المحب للمحبوب، فيها يغيب الكبر ويصغر التعالي وتشمخ المحبة والثقة، ويتألق عطاء النفس" [1] ، كما كانت مثيرا لكوامن النفس، وتعبيرا على آلام الحبس وتذكيرا بمأساة وطنهم . والقارئ لهذه الإخوانيات ـ الهدايا ـ يجدها على خط واحد هو الخط المأساوي، التراجيدي، رغم ضعف الناحية الفنية، وعدم ارتفاع هذه المقطوعات إلى مستوى المأساة الحقيقية لهؤلاء الشعراء [2] .

ومن ناحية أخرى نستطيع القول إن هذه الاخوانيات قد التزمت التقاليد العريقة للمقطوعة الشعرية في السجون، إذ كانت عبارة عن نفثات تصدر أوان الضيق، وتتلاشى حين زواله، كما أنها تمتاز بالصدق والانثيال العاطفي، والتركيز على الموضوع الكلي، ولذا كانت من بين الشعر الذي عبّر عن حياة السجناء، ونقل إلينا ذواتهم، في بساطة كلية ووضوح تام، وذلك لأن مثل هذه الإخوانيات "تعبير صاف لاقيد يقيده، ولا حدّ يحدّه، عن كل نزعات النفس" [3].

والمتصفح لهذه الاخوانيات يجدها مرتبة كما أسلفنا الذكر، ولذا فإني سألتزم هذا الترتيب الزمني الذي توخاه أصحابه في كتابة هداياهم كما يحلو لهم أن يسموها ـ الإخوانيات ـ وأول من ابتدأ هذه الاخوانيات حسبما ورد في المخطوطة هو الشيخ أحمد سحنون [4] "حيث كان يوجه الهدايا الشعرية إلى كل من يأنس كمون البذور الشعرية في نفسه من إخوانه الملتقين حوله لينمي هذه البذور، فتخرج براعمها وتؤتي ثمارها، وتضيف إلى أسرة الشعر أعضاء جديدة تعتز بهم دولة الأدب" [5] . وكما يبدو من هذا التعليق فإن غرض هذه الهدايا كذلك غرض أدبي، فني، ترويحي، إضافة إلى ما سبق، وهو أشبه بصالونات الأدب في الآداب العالمية .

ولعل أول مبادرة كانت التالية "إلى الأخ الوفي الشيخ خالد بن يطو [6]، اعترافا بوفائه، وتخليدا لصدق إخائه :

وفائي لحبك يا "خالـــد" كحبك لي أبدا خالـــــد
وسل ما بقلبك فهو الذي بما أنا قـــائله شاهـــد
فقلبي وقلبك صيغا معـــا من الحب فليخسأ الحاسد
وما يدعي الناس من حبهم نفاق، وإن جحد الجاحـــد
فلا تـــعترف بمودتـم فكل لأغـراضـه صائـد
ولا تغترر بابتسام امـرئ فمـن دونـه قلبـه الحاقد [7]

ففجرت هذه المقطوعة ينابيع شعر خالد بن يطو، وهزته في الأعماق، فما كان منه إلا أن رد على الشيخ أحمد سحنون بهذه المقطوعة مقدما لها بقوله "إلى القارئ الكريم التحفة الأولى لهذه الزهرة المتفتحة، ردا على التحية الشعرية الموجهة إليه" [8].

سموت يا حب حتـى سموت بي في السماء
أنقذتني من جحيـم سئمت فيه بقائـــي
فاليأس حطم قلبـي وامتص مني دمائـــي
وحين قـدمت كأســا وجدت فيها شفائي
وحين أشرقت نـورا أبصرت فيه رجائي
وكنت لي كـــصبـاح ودعت فيه مسائـــي

وتبدو الاعترافات في هذه المقطوعات جلية، لأنها وليدة الشعور المصطحب بالأمل، والقلق، والخوف، والرجاء، والحسرة، والألم، هذا من جهة، ومن جهة ثانية تبدو مشاعر الحب، والاعتزاز بالصداقة، وبخاصة في أوقات الضعف البشري .. ولا عجب في ذلك لأن "العظماء هم الذين يقلقون القلق العظيم، ويتألمون الألم العبقري .. هؤلاء كانت عظمتهم مصدر قلقهم وألمهم" [9] . وهل هناك أعظم من أن يقلق الإنسان على حريته المهدورة، ووطنه السليب، وزوجه البعيدة. وأبنائه المشردين ؟ إنها المأساة الكبرى التي تجعل الشعر يتفجر من الصخر، فما بالك بشاعر رقيق الإحساس مشبوب العواطف! ؟ .

وبمجرد أن تفتحت تلك الزهرة عن أكمامها، حتى رآها الشيخ أحمد سحنون وانبهر بها، فاهتز معجبا، مشجعا، مباركا هذا المولود الجديد في دنيا الشعر :

تفتح للآداب والشعر برعم ... فكل فؤاد بالمسرة مفعم
تفتح في جو تلبد غيمه ... فأضحى ووجه الصبح كالليل مظلم
بمعتقل جهم المحيا مقطب ... فما فيه إلا مايوء ويؤلم
ولكن لسحر العبقرية قوة ... عوائقها من نفسها تتحطم
فإن فاض شعرا رائقا قلب خالد ... وأصبح حقا ما به كنت أحلم
فلا عجب أن يخلق الحب شاعرا ... يظل بألحان الهوى يترنم
فصغ من أناشيد الهوى كل خالد ... تكن "خالدا" حقا بما أنت تنظم [10]

وكانت هذه المقطوعة بمثابة إزالة الحجر عن فم النبع، فترقرق شعر خالد، وسال عيونا، تملأ أجواء المعتقل صفاء، وودا، وحنانا، مبرزة آلامه وآماله، ومذهبه الوجداني الصافي الذي يتلون بتلون الحياة في السجون والمعتقلات، فتراه تارة عذبا، زلالا وطورا سوداويا، متشائما، متلبد الغيوم، تائها في دنيا الأحلام والرؤى، ويكون رده على الشيخ أحمد سحنون :

أنت يا ليل بلسم لجراحي ... وضياء أبصرت فيه وجودي
وعزاء إن أرهف النفس خطب ... تتلاشى به ثمار جهودي
أنت للقلب واحة من ظلال ... وشفاء لجسمي المهدود
منذ أهديت لي من الحب كأسا ... زال بؤسي وانجاب عني جمودي
وسرى في الفؤاد تيار حب ... فإذا بي في ظل عيش رغيد
أعبد الحسن والجمال وأهوى ... رقة الخصر واحمرار الخدود
وخرير المياه تنساب سكرى ... بين نور الضحى وعطر الورود
وأرفعيني من وهدة اليأس ليلى ... حريريني من رق هذي القيود [11]

والمتأمل في هذه الأبيات يلاحظ روح الشعراء الوجدانيين المضطربين تفاؤلا ويأسا، ولا يثبتون على حالة، ولاعجب في ذلك، فالشاعر يعيش حياة الذل والعبودية والشوق

والحنين في الوقت ذاته، فكيف لا يكون متلونا بتلون آلامه وآماله ؟ .

كما ألاحظ أن هذه "الإخوانيات" عبارة عن مساجلات أدبية يشد بها الشاعر أزر المهداة إليه، ويشكو له فيها تباريح ما يجد في نفسه، مبرزا إحساسه دون وجل . يقول أحمد سحنون مخاطبا خالد بن يطو :

أ "خالـد" يا رمز صدق الإخاء ... بدنيا من الصدق قفر خـلاء
ويا رحمـة بعـثتـها السماء ... لقلب تجـرع مر الشقـاء
أعرني سمعك أشـكو إليك ... ما لم أطـق حمـلـه مـن بلاء
أخي ! هل يحـس فـؤادك ما ... يحـس فـؤادي من البرحاء ؟
وهل يجـثم المقت فيه لمـا ... عليه ذوو النقص من كبريـاء ؟
وهل فيـه ضيق بأهل الغرور ... وهل فيه سخط على الأدعياء ؟
وهل فيـه كفر بدنيا النـفاق ... وهل فيه يأس من الأصدقـاء ؟
لقد ضقت ذرعا بهذا الوجود ... فهـل لشـقـائي به مـن دواء ؟ [12]

وهكذا يكشف لنا هذا الشعر الإخواني عن اعترافات السجناء، وما ينتابهم من قلق وتضمر، وازدراء ببعض الدهماء من الخلق ذوى النفوس الخسيسة التي لم تكن في مستوى الثورة، ولا في مستوى المبادئ التي أدخلوا من أجلها السجن .

ولا يملك الشيخ خالد بن يطو إلا أن يزيد هذه الاعترافات عمقا ويفصح عن مكنون نفسه، ويفتح لنا أسرار قلبه :

أ "سحنون" يا صورة من وفاء ... عهدتك نجما يضيء مسـائي
وتأسو جراح الفؤاد الحزين ... وتشـدو أرق لحـون الغـناء
فما لفـؤادك أمـسى كئيبا ... كساه ظلام الأسى والشقـاء؟
وليس قريضي سـوى ثورة ... تصور همي وتبـدي عنـائي
وتكشف للناس قلبـا سرى ... إليـه القنوط من الأصدقاء
وإني أضيق برحبـة الوجود ... ولولا الأمـاني لمت بدائـي [13]

كما تكشف لنا هذه الإخوانيات عن بعض الألحان الشجية والعواطف الأخوية، حين الفراق، وانتقال بعض أعضاء هذه الندوة الأدبية من معتقل إلى آخر، ومن ذلك انتقال أحمد شقار الثعالبي [14] من معتقل بوسوي * إلى معتقل سيدي الشحمي، وبمجرد أن سمع الشاعر أحمد سحنون بهذا الفراق الذي لا بد منه، هزته عاطفة جياشة إلى صديقه، فأرسل إليه هذه القطعة الراقصة كالمذبوح بالمدية الحادة :

شاعر الحب والغزل ... عاف دنياه فأعتـــزل
لاذ بالصمت لم يعد ... ينظم الشعر كالقبـــل
وذوى فيه حـــبه ... وخبا مشعل الأمـــل
هيض منه جناحه ... فانطوت عزمة العمل
غاب عنه محـــبه ... فـفشا الضيق والملـل
وإذا غاب من أحب ... فنجم المنى أفـــل [15]

وبمجرد سماع الشيخ أحمد شقار هذه الأبيات، حتى "بات ليله مسهد الجفن، يفكر في هؤلاء الإخوان الأوفياء الذين سيغادرهم، ويفكر في نفسه الثائرة الملتاعة التي فوجئت بهذه الصدمة العميقة، وما أسفر الصبح إلا وقد نضجت عبقريته بهذه القصيدة [16] .

جار دهـري وأفتنى فـي تعذيبي ... فاتركوني لغصتي ونحيبـي
ودعونـــي ألم أشتـــات نفسي ... أعاني آلام شقـــوة دروبـي
فلقد جفـت المباهج وانقضت ... على مهجتي شظايا الخطوب
واستشاطت عواطفي في حنان ... تحت مفعولها ارتـفاع وجيبي
إن قلبي قد استحال رمـــادا ... بعد أن كان كتـلة من لهيـب
أتكون الآلام في شكلها القاسي ... بهـــذي الحياة كـل نصيبي ؟

ويواصل أحمد شقار اعترافاته الحزينة الأليمة من جراء السجن الذي جعله كذلك، إضافة إلى مغادرته لإخوانه حيث أحسّ بغربة أخرى أعظم من غربة السجن الأولى رغم أنه سيقل إلى سيدي الشحمي ليطلق سراحه من السجن، فيقول :

كيف لا والـزمان جابهني بالبين ... عـــن إخـوة كـبـار القلوب
اجتني من ودادهم كل إخـلاص ... ومن خلقهـم شـذى كل طيـب
بهم السجـــن صار جنة عدن ... زانها الزهـر بالرداء القشيـب
لست أنسى على الزمان مزايـا ... هم إذا كـنـت غارقا في كروبـي
لاولا أستسيـغ طـعـم هنـاء ... أو يكونوا الأحرار بين الشعوب [17]

وهكذا تتوالى هذه الاخوانيات، حاملة تجارب هؤلاء الشعراء، وما يساورهم من القلق والحنين، والصبر، والاعتزاز بالصداقة الحقه، والحيرة، ونلاحظ أن للصداقة في الاخوانيات قيمتها الرفيعة السامية، حتى أنها لتسمو أحيانا على القرابة. كما ألاحظ أن محرك هؤلاء الشعراء، ومنشط هذه الحركة الإخوانية في معتقل بوسوى، - الضاية - هو الشيخ أحمد سحنون الذي كان هو السباق إلى فتح قلبه لإخوانه، ثم يكون الرد، ومن ذلك بعثه بمقطوعته التالية إلى أحمد عروة [18] وهو معهم في المعتقل :

يا عروة الشعر الحديث وآسيا مثل ابن سينا في الأنام جراحا
عش حارسا للمجد من متطفل فالمجد قد أعطى لك المتاحا [19]

فما كان من الشاب أحمد عروة إلا أن رد التحية على أستاذه قائلا :

تبرعت بالحلة الزاهرة وأهديتني قطعة نادره
عواطفها بسمة في الأسى ونور لأفكاري الحائره
سأحفظها في خبايا الشعور تغذى براعمه الباكره
فدم نيّرا في سما العلا تميس بأقلامك الساحره
وعش للجزائر وأسلم بها لتبقى "سحنونها" فاخره [20]

وراح أحمد سحنون يوزع هداياه على المعتقلين يمنة ويسرة، باثا روح الود والإخاء، ناشرا خيوط الأمل بين إخوانه ليقاوموا نار الغربة وألم الوحشة وعذاب المعتقل، ومن ذلك هذه الباقة من الأبيات التي قدّم لها بقوله : "فقد وجدت في المعتقل من الأصدقاء ما أعتقد أن حياتي كانت ناقصة قبل أن أعرفهم، ومن هؤلاء أخي الأديب العبقري الأستاذ محمد الطاهر الأطرش .. فإليه أهدي هذه الباقة من الاعتراف بالجميل" [21] .

لي أخ صيغ قلبه من حنان كان عوني على خطوب زماني
فإذا ما دعوته لمهم كان لي مثل ساعدي وبناني
وإذا كل صاحب صدّ عني شد أزري وحاطني ورعاني

ولعل هذه الهدايا كانت من باب الاعتراف بالجميل لكل من له يد على الشيخ أحمد سحنون بخاصة، لما كان يمتاز به من تواضع وحسن معاشرة، كما حدثنا بذلك الشيخ خالد بن يطو في مقابلة لنا معه ببيته . كما أنها كانت وسيلة من الوسائل لم الشمل، وجمع الإخوان في أسرة واحدة .

ونلاحظ أن هذه الإخوانيات ترد في بعضها على صيغة الحكم والنصح والارشاد والاعتبار، وذلك لأن الشعراء في حالة استقراء الوضع، لما يمتاز به من مرارة، قاتلة، ووحشة مؤلمة . وعلى العموم فإن الإخوانيات في شعر السجون والمعتقلات قد عبرت عن أواصر الأخوة، ومعاناة الشعراء، وأبرزت عواطفهم الرقيقة بكل رقة ووفاء، ويقين بالعودة إلى أرض الوطن، وقد لا تسمو إلى قمة المأساة، إلا أنها تصّور ما يحسّه هؤلاء وتسمو إلى مستوى تجربتهم لأنها صدى نفوس معذبة، محرومة من الحب والحنان في أتون الاستعمار .

والملاحظة الأخيرة هي أن هذا الشعر الإخواني امتاز بالوحدة الموضوعية والعضوية، وذلك لأنه عبارة عن دفقات شعورية تنسكب عند التوتر وتتوقف بتوقفه، ونترك

القارئ مع هذه الندوة الأدبية التي وجدناها عند الشيخ خالد بن يطو والتي احتفظ بها من معتقل بوسوي، وقد صنفت من طرف أحمد سحنون وكتبت بخط محمد الطاهر الأطرش، وهذا ما يرويه لنا خالد بن يطو في مقابلة معه يوم 1988/08/22، وكذلك ما يؤكده لنا الشيخ أحمد سحنون في مقابلة معه بتاريخ 1988/08/20، وأحمد شقار الثعالبي في مقابلة معه يوم 1989/08/21، وهو ما أشار إليها الشيخ أحمد سحنون في مقدمة ديوان أحمد عروة "ذكرى وبشرى" [22].

الندوة الأدبية
(كما هي مخطوطة)

إثارة وتوجيه :

أكثر ما يقوم الإنتاج الأدبي على إثارة العواطف وتوجيه المشاعر بكلمة لافتة، أو نكتة بارعة، أو إلزام بالنظم أو الكتابة، وهناك وسيلة أخرى لعلها أبرع هذه الوسائل كلها، وهي الهدية الشعرية التي تهز الكيان الأدبي في نفس المهداة إليه . وتحت تأثير الإيمان بقوة مفعول هذه الأداة عمد الأستاذ سحنون إلى أن يوجه هداياه الشعرية إلى كل من يأنس كمون البذور الشعرية في نفسه من إخوانه الملتقين حوله، لينمي هذه البذور فتخرج براعمها وتؤتي ثمارها، وتضيف إلى أسرة الشعراء أعضاء جديدة، تعتز بهم دولة الأدب . وقد نجحت هذه المحاولة بكيفية مدهشة، فأبرزت لدينا مواهب وعبقريات في مدة لا تتجاوز الأسبوع .

الهدية الأولى :

إلى الأخ الوفي الشيخ خالد بن يطو اعترافا بوفائه، وتخليدا لصدق إخائه :

وفائي لحبك يا "خالـــد" كحبك لي أبدا خالـــــد
وسل ما بقلبك فهو الذي بما أنا قـــائله شاهـــد
فقلبي وقلبك صيغا معـــا من الحب فليخسإ الحاسد
وما يدعي الناس من حبهم نفاق، وإن جحد الجاحـــد
فلا تـــعتـــرف بمودتـم فكل لأغـراضـه صائـد
ولا تغترر بابتسام امـرئ فمن دونـه قلبـه الحاقد

أحمد سحنون

ففجرت هذه العصا السحرية ينابيع الشاعر خامد الذكر الذي عاش جزءا من شبابه منطويا على نفسه خلف نقاب صفيق من التواضع الذي طالما قضى على مواهب وعفى على عبقريات، فماتت وهي في براعمها لم تكتمل بنور الحياة ولم يعبق أريجها في دنيا الفنون والآداب

والى القارئ الكريم النفحة الأولى لهذه الزهرة المتفتحة، ردا على التحية الشعرية الموجهة إليه :

سموت يا حب حتى ... سموت بي في السماء
أنقذتني من جحيم ... سئمت فيه بقائي
فاليأس حطم قلبي ... وامتص مني دمائي
وحين قدمت كأسا ... وجدت فيها شفائي
وحين أشرقت نورا ... أبصرت فيه رجائي
وكنت لي كصباح ... ودعت فيه مسائي

خالد بن يطو 20 ـ 11 ـ 1957

فكان لهذه المفاجأة السارة المشجعة من الأثر العميق في نفس الأستاذ أحمد سحنون، وما أطلق لسانه بأن قال :

الهدية الثانية :

تفتح للآداب والشعر برعم ... فكل فؤاد بالمسرة مفعم
تفتح في جو تلبد غيمه ... فأضحى ووجه الصبح كالليل مظلم
بمعتقل جهم المحيا مقطب ... فما فيه إلا مايوء ويؤلم
ولكن لسحر العبقرية قوة ... عوائقها من نفسها تتحطم
فإن فاض شعرا رائقا قلب خالد ... وأصبح حقا ما به كنت أحلم
فلا عجب أن يخلق الحب شاعرا ... يظل بألحان الهوى يترنم
فصغ من أناشيد الهوى كل خالد ... تكن "خالدا" حقا بما أنت تنظم

أحمد سحنون
معتقل بوسوي 04 ـ 12 ـ 1957

فكان لتأثير هذه القطعة السحرية الخالدة، ولهذا التشجيع البادي في كل نفثة من نفثاتها ما دفع بشاعرنا الجديد خطوة واسعة إلى الأمام، ففتحنا بهذه النفحة الجديدة :

أنت يا ليل بلسم لجراحي ... وضياء أبصرت فيه وجودي
وعزاء إن أرهف النفس خطب ... تتلاشى به ثمار جهودي
أنت للقلب واحة من ظلال ... وشفاء لجسمي المهدود
منذ أهديت لي من الحب كأسا ... زال بؤسي وانجاب عني جمودي

وسرى في الفؤاد تيار حب ... فإذا بي في ظل عيش رغيد
أعبد الحسن والجمال وأهوى ... رقة الخصر واحمرار الخدود
وخرير المياه تنساب سكرى ... بين نور الضحى وعطر الورود
وأرفعيني من وهدة اليأس ليلى ... حريريني من رق هذي القيود

خالد بن يطو

الهدية الثالثة :

لم يمض على نشأة هذه الندوة غير قليل، حتى بوغتنا بانتقال أحد أعضائها المنتجين الأخ الأستاذ أحمد شقار إلى معتقل آخر، فكان لانتقاله من بيننا الأثر في نفوسنا ما حرّك شاعرية أحد الأعضاء الأستاذ أحمد سحنون بالقطعة التالية : ما أسعدني بقرب أديب موهوب مثل أخي الوفي الأستاذ أحمد شقار الذي قضيت معه لحظات جميلة خصيبة بكل رائع بديع من ألوان الأدب والفن بمعتقل "بوسوي" . ولذلك، فبمجرد أن طرق مسمعي أنه قد عيّن في قافلة الخمسين معتقلا المقرر نقلهم إلى محتشد "سيدي الشحمي" ريثما يأخذون حظهم من الاستجمام، ثم يطلق سراحهم، أحسست بدبيب السأم من هذه الحياة التي لا تبقي على شمل الجميع، وإذا بهذا السأم ينسجم لحنا حزينا في هذه الأبيات التي تصور وفاء الأديب للأديب؛ وفاء لا تعدو عليه الأيام، ولا تقف في طريقه الخطوب :

شاعر الحب والغزل ... عاف دنياه فاعتزل
لاذ بالصمت لم يعد ... ينظم الشعر كالقبل
وذوى فيه حبه ... وخبا مشعل الأمل
هيض منه جناحه ... فانطوت عزمة العمل
غاب عنه محبه ... ففشا الضيق والملل
وإذا غاب من أحب ... فنجم المنى أفل

أحمد سحنون
بوسوي 01 . 12 . 1957

وتأثر الأخ شقار بهذه القطعة وبات ليله مسهد الجفن، يفكر في هؤلاء الإخوان الأوفياء الذين سيغادرهم، ويفكر في نفسه الثائرة التي فوجئت بهذه الصدمة العنيفة، وما أسفر الصبح إلا وقد نضجت عبقريته بهذه القصيدة العصماء التي ضمنها كل عواطف هذه النفس وخلجاتها، وعندما اجتمع إخوانه الكثيرون لتوديعه قام بينهم، وألقاها عليهم بتأثر عميق مهد لها بكلمة الإهداء وهي قوله : مهداة إلى إخوان الصفا أعضاء الندوة الأدبية ببوسوي، وفي طليعتهم الأستاذ أحمد سحنون .

جار دهـري وأفتنى فـي تعذيبي ... فاتركوني لغصتي ونحيبـي
ودعونـــي ألم أشتـــات نفسي ... أعاني آلام شقـــوة دروبـي
فلقد جفـت المباهج وانقضت ... على مهجتي شظايا الخطوب
واستشاطت عواطفي في حنان ... تحت مفعولها ارتـفاع وجيبي
إن قلبي قد استحال رمـــادا ... بعد أن كان كتـلة من لهيب
أتكون الآلام في شكلها القاسي ... بهـــذي الحياة كـل نصيبي ؟

أقضـى اللـه للأديـب بحرمان ... وبـؤس وحرقـة وقـطـوب
كيف لا والزمان جابهني بالبين ... عـم اخـوة كبـار القلـــوب
نزهتهـم يـد الإلـه فما كـانـوا ... سـوى روضـة بقفر جـديـب
اجتنى من ودادهم كل إخلاص ... ومن خلقهم شذى كـــل طيب
بهـم السجن صار جنـة عـدن ... زانها الزهر بالـرداء القشيب
لست أنسى على الزمان مزايـا ... هـم وإن كنـت غارقا في كروبي
لا ولا أستـطيع طعـم هنـاء ... أو يكونوا الأحرار بين الشعوب
أفأنسـى "سحنون" عالـم حـق ... وخطـيبـا أكرم به من خطيب
يرسل القول ومواعظه الحسنى ... سـلافـا ممزوجـة بالطيـوب
أو صراخا يبدد النوم في عيـن ... غشـوم وخائـــن ومـريـب
أفأنسى "سحنون" مـن صاغه الله ... عظيما فـي روعـة العندليـب
يرسـل الشعـر في انسجام بديع ... نفثـات مـن الفـؤاد الـرحيب
لست أنسـى أسلوبه الغـــض ... يبدو رافلا في خيالـه المشبـوب
أفأنسى "سحنـون" وهـــو مناري ... تحت أضـوائـه عرفت دروبـي
لست أهلا اذن لـما منـح الله ... أديـــبـا مـن الوفـا لأديب
اخوتـي وحـدّوا الجهود وكونوا ... صخـرة فـي طريق كل هبـوب
وارفعـوا صيحة التضرع للمنان ... أن تـنجلي غواشـي الكـروب
واهتفـوا فـي حرارة وابتـهال ... ورجـــاء ولوعـــة ونحـيب
أعـد اللهـم الغريب إلى الأهـل ... وحطـم قيـود عـهـد رهيـب
أيهـا الفتيـة الكـرام سلامـا ... ووداعـا مـن مستهـام كئيب
وإلى الملتقى على ضفة التحرير ... والاستـقـلال عـمـا قريـب
هـي للشهـم جـذوة من حماس ... هـي للعاشقيـن طيف حبيب

أحمد شقار
بوسوي 03 ـ 12 ـ 1957

الهدية الرابعة :

تحية الشعر للشعر: إن المواهب الإنسانية قد فرقها الله بين خلقه ولم يجمعها كلها في واحد، إلا أفرادا قلائل شذوا عن القاعدة، فجمعوا أشتاتا من المواهب والمزايا تفوقت من غيرهم، ليتقردوا بمزية البطولة، ويتسموا بميسم المجد، ويكونوا قدوة للمقتدي، ومثالا للمحتذي، ولما أسعدني الحظ بالتعرف إلى الشاعر الرسام، أخي " أحمد عروة"، وجدته من هذا الطراز الفريد الذي جمع أشتاتا من المواهب والمزايا لم يتح لنا بعد أن نراها مجتمعة في غيره . فهو طبيب، شاعر، رسام، يجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية، وهو مع ذلك مثال في التواضع ولين الجانب، ودماثة الخلق، في صحة عقيدة، وإيمان، وشدة تدين . فإليه أهدي هذه القطعة المتواضعة اعترافا بفضله، وإعجابا بمواهبه :

يأسو الجراح ويذهب الأتراحا ... ويحيل مأتم دهره أفراحـــــا
فبطبه يأســو الجسوم فتشفى ... وبشعره يأسو بها الأرواحـــــا
وبرسمه يجلو القذى عن أعين ... شهدت لروعة فنه ألواحـــــا
وبخلقه داوى النفوس وطيها ... فغدت به مرضى النفوس صحاحا
لله قلب قد حوتـــه ضلوه ... قد راض من نبل الخلال صحاحا
يا "عروة" الشعر الحديث وآسيا ... مثل "ابن سينا" في الأنام جراحا
عش حارسا للمجد من متطفل ... فالمجد قد أعطى لك المتاحا

أحمد سحنون
بوسوي 19 ـ 12 ـ 1957

رد التحية : إلى صديقي الأستاذ أحمد سحنون، ثناء على هديته الشعرية الغراء :

تبرعت بالحلة الزاهرة ... وأهديتنـــي قطعة نادره
عواطفها بسمة في الأسى ... ونور لأفكاري الحائره
سأحفظها في خبايا الشعور ... تغذي براعمه الباكره
سأقتبس الفن من روضها ... ففيها مفاتيحه الماهره
فدم نيرا في سماء العلا ... تميس بأقلامك الساحره
وعش للجزائر وأسلم بها ... لتبقى "بسحنونها" فاخره

أحمد عروة
بوسوي 19 ـ 12 ـ 1957

الهدية الخامسة :

صدق الفلاسفة في قولهم : "ليس في هذه الحياة شر محض"، فقد وجدت في المعتقل من الأصدقاء ما أعتقد أن حياتي كانت ناقصة قبل أن أعرفهم، ومن هؤلاء أخي الأديب العبقري الأستاذ محمد (هكذا ورد البيت في الأصل) الطاهر الأطرش، الذي كان يقرأ لي ويكتب عني، والذي يرجع إليه الفضل في أكثر ما قرأت وما نتجت بمعتقل "بوسوي" . فإليه أهدي هذه الباقة من الاعتراف بالفضل :

لي أخ صيغ قلبه من حنان ... كان عوني على خطوب زماني
فإذا ما دعوته لمهمة ... كان لي مثل ساعدي وبناني
وإذا كل صاحب صد عني ... شد أزري وحاطني ورعاني
ليس يدري للشر طعما ... ولا يعرف غير الجميل والاحسان
إنه ذلك الصديق المفدى ... "طاهر" الخلق طاهر الوجدان
لا يُرى غير باحث جديد ... جائل الفكر رياض البيان
لو غدا مثل طاهر كل صحبه ... لم أكن أشتكي من الإخوان

أحمد سحنون
بوسوي 17 ـ 12 ـ 1957

الهدية السادسة :

إلى الأديب الصامت، إلى الكاتب الخامل، إلى النجم المدثر بالغيوم، إلى الجندي المجهول، الذي لولا محنة الاعتقال، لبقي من دنيا الأدب بالمكان المجهول، أما اليوم فإني أتوجه بالتاج الذي إن زالت التيجان فإنه لزهدي، وإن زالت الدنيا فإنه لا يزول، إنه تاج الفن الذي يبقى على الزمن، إلى أخي خالد قويدري أرفع هذه الباقة تحية إعجاب، ورمز صداقة :

راح كالطير واغتدى ... يلثم الزهر والندى
باسطا في الربا جنا ... حيه للحسن منشدا
يعبد الفن جاعلا ... فكره الحر معبدا
كاتب، عاف أن يرى ... للقوافي مرددا
يالـه ثائرا على ... كل قيد تمردا
"خالد" يا أخا النهى ... سوف تغدو مخلدا
صغ أقاصيصك التي ... في فؤادي لها صدى
إنها تقتل الأسى ... إنها تطفئ الصدى
واهجر الصمت إنه ... لشبا الفكر كالصدا
كنت كالحق خاملا ... كنت كالسيف مغمدا
فانض ثوب الخمول ... وابرز كسيف تجردا
واغد في كل روضة ... كهزار مغردا

أحمد سحنون
معتقل بوسوي 20 ـ 12 ـ 1957

الهدية السابعة :

صديق مثالي : من مزايا معتقل "بوسوي" ـ وكم نقمة في طيها نعمة ـ أن تعرفت إلى صديق مثالي، جمع كل ما يطلب في الصديق، من دماثة الخلق، ورحابة أفق، ورجاحة عقل، ودقة في النظر، وعمق في التفكير، وغيرة على الحق، ووفاء للصديق؛ ذلك هو الأخ ابن العقبي صالح الذي أخصه بهذه التحية :

أخ (صالح) من عباد البلاد تبوأ موضعه الفؤاد
بأفكاره شمت نور العلا بأخلاقه دقت صفو الوداد
وألفيت فيه صفات الصديق من الرأي والحلم والانقياد
فأصبح من خافقي في الصميم وأصبح من ناظري في السواد
فان الصديق لنعم العتاد لكسب المعالي ورغم الأعادي
أ(صالح) حسبك نبل الفؤاد وصفو الوداد وصدق الجهاد
وحب تمكن من كل قلب وذكر تأرج في كل ناد
فسر للمعالي سريع الخطى مسير شذا الراهب في كل واد

أحمد سحنون
معتقل بوسوي 21 ـ 12 ـ 1957

الهدية الثامنة :

إن الظروف التي تمر على المرء، ولا سيما في عنفوان الشباب، لها صلة وثيقة بما يبدو على النفس من تغير في الطباع . ولهذا لا عجب إذا لمست هذا التغيير في نفسي وقد كنت فجر شبابي قوي الثقة في الصداقة والأصدقاء، أندفع اندفاعا جنونيا في هذا الطريق حتى استيقظت تحت معاول التنكر والخيانة، فإذا بجسمي أشلاء مبعثرة، وقلبي يخيم عليه ظلام من اليأس ما تزال بقاياه تدفعني إلى الحذر والحيطة كلما حاولت أن أرتبط بصديق . لكن ما تزال في الإنسانية نفوس تكره النفس على العودة إلى طباعها الأصلية، بما تتصف به من فضيلة، لا يزيدها توالي الخطوب إلا جمالا ونماء، ومن هذه النفوس نفس أخي الوفي صالح الذي أهدي إليه هذه الباقة الشعرية رمزا على ما في قلبي من معاني الوفاء :

رسم نبل وصورة صفاء ومثال من عزة وإباء
عاش يسعى إلى العلا باجتهاد وصمود وهمة وذكاء
وإذا ما دعا إلى المجد داعيه استجاب له بلا ابطاء
يتجلى لخله رمز أنس في اهاب من رقة واحتفاء

وإذا ثـار كان مبعـث رعـب يترك القلب في أسى وشقاء
"صالـح" عشت للجزائر ذخرا ومثـالا مـن جـرأة مضـاء
مثلمـا عشت بالإخاء جديـرا فـي اطـار رحمـة ووفـاء

أحمد سحنون
بوسوي 20 ـ 12 ـ 1957

الهدية التاسعة :

إلى إخواني جميعا من أهل الأدب، ورجال الفكر بمعتقل "بوسوي" :

رثى لي إخواني وأفـزعهم سجنـي وظنـوا بشعـري أن يمـوت مني
وقالوا: رأينا الماء إن طال حبسـه تغيـر وانتابتـه رائحـة العفـن
وكيف يطيق العيش بالسجن ضيفه وقد ضاق بالدنيا فضج من الغبن
وكان يرى هذي الحيـاة بأسرهـا كسجن فكيف الآن يرتاح لسجن
فقلـت : إذا كنتـم معي لا يهمنـي فـراق لأهلـي أو بعاد عـن ابنـي
فليـس بسجـن مـوضع فيه إخوة ولكـن سجني بعد موضعهم عنـي
فقـد منحتنـي رحمـة اللـه اخوة صدورهم لم تطو يوما على ضغـن
مثـال وفـاء فـي رخـاء وشـدة يزورونني في يوم صحو وفي دجن
مجالسهـم للعيـن والقلب نزهـة أصبح منهـم كـل يـوم على فن
فـإن لـم تكـن مني بـلادي قريـبة فحسبي أن يدنو بنو وطني منـي

أحمد سحنون

الهدية العاشرة :

صـداح يا رمـز حبـي ويـا نشيـد غنايا
يا ملجـأ فـي خطوبـي ويـا منـار هدايـا
سحنون يا روض أنسـي أهـدي إليك تحايا
أزجـي إليك قريضـي والشعر أغلى الهدايا
أذوى فراقـك قلبـي جـوى وزاد صـدايا
ومنـذ صـرت قـريبـا مني نسيـت أسـايـا
وانجـاب ظـل جمـودي وبـان نجم رجـايـا
وأصبـح الشعـر يدنـي من الخلـود خطايـا
لـولاك مـا شمت دربـي ولا اكتشفـت دنايـا

خالد بن يطو
بوسوي 29 ـ 12 ـ 1957

تلكم وقفة بسيطة مع وثيقة من وثائق الثورة التحريرية في معتقل بوسوي، والتي تمثل حلقة هامة في تاريخ الأدب الجزائري والأدب العربي عموما، بل هي صورة من صور المقاومة بالقلم في ليالي الاستعمار الفرنسي، لما تحمل من أحداث وطنية ومعاناة الرجال وراء القضبان، نكشفها للقراء لأن أصحابها زهدوا فيها، أو أنستهم حياة الروتين اليومي مما جعلنا لا نعرف شيئا عن هذه الندوة .

هوامش :

❖ . يقع هذا المعتقل جنوب سيدي بلعباس، دائرة تلاغ، وكان عبارة عن ثكنة عسكرية قرب جبال الضاية، وقد سخره المستعمر معتقلا للسياسيين الجزائريين إبان الحرب العالمية الثانية، وسمي Bousoui نسبة إلى الأسقف الفرنسي (1627 . 1704) العالم في اللاهوت والتاريخ والفلسفة، وأصبح هذا المعتقل منذ 1955 من أكبر المحتشدات في الجزائر للشعراء والكتاب والأدباء، ففيه تكونت فرق مسرحية وندوة أدبية كان ينشطها الشيخ أحمد سحنون .

1 . انعام الجندي، دراسات في الأدب العربي، دار الأندلس، ط 2 . 1967 . ص 209 .

2 . ينظر : تعريف المقطوعة، جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين . بيروت . ط 1 . 1979 . ص 262 .

3 . انعام الجندي، دراسات في الأدب العربي، ص 212 .

4 . الشيخ أحمد سحنون من مواليد (ليشانة) غرب بسكرة سنة 1907، من أهم شعراء الجزائر الإصلاحيين، كان عضوا في جمعية العلماء المسلمين، ومعلما في مدارسها بالجزائر العاصمة، ألقي عليه القبض سنة 1956 مع جمع من العلماء والمفكرين وسيقوا إلى معتقل بوسوي .

5 . الأعظم بالعاصمة، له ديوان شعر صدر عن الشركة الوطنية بالجزائر سنة 1977 وله دراسات إسلامية صدرت عن نفس الشركة سنة 1981 وله ديوانان مخطوطان .

6 . أحمد سحنون، الندوة الأدبية، مخطوطة .

7 . من مواليد سيدي خالد 1926 ولاية بسكرة، شاعر عصامي ومعلم بمدارس جمعية العلماء المسلمين، أحد الذين شاركوا أثناء الثورة التحريرية الكبرى في نشر الوعي السياسي بناحية الجزائر العاصمة، اعتقل سنة 1957 وبقي شهرا تحت التعذيب بالمكتب الثاني (Deuxième bureau) ومنها كان يتنقل من معتقل إلى آخر إلى غاية 1960، ومع فجر الاستقلال انضم إلى سلك التعليم، فالصحافة، فالإذاعة الوطنية بقسم الأنباء، ما يزال شعره مخطوطا، كما يحتفظ بكثير من مخطوطات شعر السجون والمعتقلات .

8 . أحمد سحنون، الندوة الأدبية، الهدية الأولى، مخطوطة .

9 . خالد بن يطو، الندوة الأدبية، الهدية الثانية، مخطوطة .

10 . انعام الجندي، دراسات في الأدب العربي، ص 212 .

11 . خالد بن يطو، الندوة الأدبية، مخطوطة .

12 . أحمد سحنون، الندوة الأدبية، مخطوطة .

13 . خالد بن يطو، "الندوة الأدبية"، مخطوطة .

14 . من مواليد 1927 بالجعافرة برج بوعريريج من أسرة محافظة، حفظ على يد والده القرآن الكريم، ثم انتقل إلى قلعة بني عباس، حيث درس على يد محمد أوعمر جلواح، ثم درس بالزيتونة، ولأسباب صحية عاد إلى أرض الوطن، في سنة 1948 انضم إلى سلك التعليم بمدارس جمعية العلماء، حيث أصبح عضوا نشطا فيما بعد في جبهة التحرير الوطني، مما أدى به إلى الاعتقال والتعذيب في بني مسوس على يدي جلادي المكتب الثاني، واستمر اعتقاله إلى غاية 25 أوت 1960، وبعد الاستقلال عمل في الإذاعة الوطنية، كاتب وشاعر ما يزال شعره مخطوطا .

15 . أحمد سحنون، الندوة الأدبية، مخطوطة .

16 ـ أحمد شقار الثعالبي، الندوة الادبية . مخطوطة .

17 ـ أحمد شقار الثعالبي، الندوة الأدبية . مخطوطة .

18 ـ هو الدكتور أحمد عروة المتخصص في الطب، وعميد جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية سابقا، شاعر وكاتب له ديوان شعر شعر تحت عنوان "ذكرى وبشرى" .

19 ـ أحمد سحنون . الندوة الأدبية، مخطوطة .

20 ـ أحمد عروة . المصدر السابق .

21 ـ أحمد سحنون . المصدر السابق .

22 ـ ينظر: أحمد عروة، ديوان "ذكرى وبشرى"، الشركة الجزائرية . د.ت .